

تمهيد

الحمد لله رب العالمين ، شرع لنا ديننا قويمًا ، وهدانا صراطًا مستقيمًا ، وأسبغ علينا نعمه ظاهرة وباطنة ، وهو اللطيف الخبير .

اللهم لك الحمد كله ، ولك الملك كله ، وبيدك الخير كله ، وإليك يرجع الأمر كله ، أنت رب العالمين ، سبحانه لا نحصي ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك ، وأشهد ألا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، ولي الصالحين ، وخالق الخلق أجمعين ورازقهم ، ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرُّهَا وَمُسْتَوْدَعُهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ ^(١) ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ؟ ﴾ ^(٢) .

وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله ، أرسله الله رحمة للعالمين . فشرح به الصدور ، وأنار به العقول ، وفتح به أعينا عميا ، وأذانا صما ، وقلوبا غلفا ^(٣) فجراه الله عنا أفضل ما جزي به نبينا عن أمته ، ورضي الله عن أصحابه الطيبين ، وعن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد :

فإن البحث في الحديث النبوي الشريف أمر له أهميته في بنية الفكر الإسلامي ، وتكوين العقلية المميزة للأمة الإسلامية ، خصوصا إذا ما تصورنا حجم الهجمة الشرسة وما ينصبه أعداء الأمة في الداخل والخارج من مكائد ، وما يراد للأمة من مسخ لشخصيتها ، ومحاولات لا تتوقف يراد بها صرف الناس وإعراضهم عن هدي النبوة ، وتشكيكهم فيما يصل إلى الأجيال المسلمة من الأحاديث النبوية ، ونسبة هذه الأحاديث إلى رسول الله ﷺ .

ولقد بذل العلماء جهودًا مشكورة فاقت كل تصور في صيانة الحديث الشريف ، وهو أمر قد عدم نظيره سواء ما يتصل بنسبة هذا العلم إلى غيره من علوم الإسلام ، أو ما يتصل بنسبة هذا العلم إلى غيره من سائر علوم الأمم ومعارفها ، يدفعهم إلى ذلك طاعة الله وطاعة رسوله ، ثم صيانة الأمة من الإنحراف والخلط ، ضمانا لرقبها وتقدمها ، وجعلها في مصاف الأمم المتقدمة ، مع هذا فإن حال الأمة لا يهرب عدوا ، ولا يفرح صديقًا ، ولا يطمئن المخلصون على مستقبلها . ولا يستريحون لحاضرها .

(٢) سورة فاطر آية رقم : ٣ .

(١) سورة هود آية رقم : ٦ .

(٣) غلفا : غلفت السيف جعلت له غلافًا ، أي غطاءً ، أو المعنى أن القلوب مغطاه لا تقبل علما ، المفردات للراغب الأصفهاني : ٣٦٤ ط دار المعرفة ، النهاية في غريب الحديث لابن الأثير : ٣ / ٣٧٩ ط دار إحياء التراث .

ولعل البحث عن أسباب ذلك ليس من مقصودنا ، مع الاعتراف بأن من وراء ذلك قصة طويلة ، بدأت منذ أمد بعيد ، وإن لم يعرف وقتها على وجه التحديد ، لماذا ؟
أمران لا يحدد لهما وقت بدقة :

النوم في حياة الفرد .

والانحطاط في حياة الأمة . فلا يشعر بهما إلا إذا غلبا واستوليا^(٤) .

والأم كالأفراد - إذا - تتقلب ما بين مد وجزر ، وارتفاع وهبوط ، وتربها صنوف من الاختبارات والبلايا ، وأمتنا تطوف بها تلك الحادثات ، بل لعل حظها أوفر .

وقد حفلت السنوات الأخيرة بكثير من التناقضات العجيبة المؤسفة .

والذي يمكن أن أقرره هنا ... أن علل الأمة وأدواءها - لا تأتيها من الخارج بمقدار ما تأتيها من الداخل - ومن نفسها قبل غيرها .

ولله در من قال : ما أخشى على المسلمين إلا من المسلمين ، ما أخشى من الأجانب كما أخشى من المسلمين ، وهو كلام أصاب كبدا الحقيقة^(٥) .

ولك أن تنظر

تلك الضربات والهزات المتوالية والمتلاحقة التي أخضعت الأمة خضوع مذلة ومهانة لأعدائها .

فما بين إحياء للفرقة ونزعاتها - من خوارج^(٦) ، ومعتزلة^(٧) ورافضة^(٨) ، رغم ما واجهه الإسلام من عنتهم ، وما كان لآرائهم في الصحابة وأئمة المسلمين من جموح^(٩) ، وما نتج

(٤) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين : ١٤٣ ط دار القلم .

(٥) لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم ؟ ٦٧ ط دار مكتبة الحياة .

(٦) الخوارج : ويقال لهم : الحرورية والنواصب ، والشرأة - وهم جمع خارج : وهو الذي خلع طاعة الإمام الحق وأعلن عصيانه ، وقد أجمعوا على كفر الإمام علي لقبوله التحكيم وإن اختلفوا في كفره شرك أم لا ! أنظر مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري ١ / ١٦٧ ط مكتبة النهضة بمصر . تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد .

(٧) المعتزلة : ويسمون أصحاب العدل والتوحيد ، والذي يعم طائفتهم من الاعتقاد ؛ القول بأن الله قديم ، ونفي الصفات . فقالوا : عالم بذاته ، قادر بذاته . لا يعلم ولا بقدرة ، واتفقوا على أن كلامه حادث مخلوق في محل ، وعلى نفي رؤية الله بالابصار في دار القرار ... إلخ . أنظر : الملل والنحل : ١ / ٦٣ ط الأزهر .

(٨) الرافضة : هم الذين رفضوا إمامة زيد بن علي بن الحسين . وكان من أمره أن يابعه خمسة آلاف من أهل الكوفة ، فأخذ يقاتل بهم يوسف بن عمرو الثقفي ، عامل هشام بن عبد الملك ، فلما اشتد القتال قال الذين يابعوا عليا : ما تقول في أبي بكر وعمر ؟ قال : أتني عليهما جدي علي ، وقال فيهما حسنا . وأما خروجي على بني أمية فإنهم قاتلوا جدي عليا ، وقتلوا جدي حسينا . فخرجوا عليه ورفضوه ، فسموا بذلك رافضة .

انظر : التبصير في الدين لأبي المظفر الإسفرائيني : ١٨ ط الأنوار بمصر .

(٩) جمع الفرس كمنع : جمحا وجموحا ، وهو جموح ؛ اعتر فارسه وغلبه بنشاطه في مروره وجريانه .

ترتيب القاموس المحيط : ١ / ٥٢٤ ط عيسى الحلبي . المفردات للراغب : ٩٦ .

عن ذلك من تعدد للآراء ، وانقسام بشع حول الشيء الواحد .
ولماذا هذه الجهود المبذولة لإحياء هذه النزعة ؟ نزعة التعددية - والفرق ؟ لما لهذه الفرق من آراء فاسدة ، وخصومات جائرة في مختلف العصور . من ذلك :
أ - نظرة أصحاب هذه الفرق من متكلمين وغيرهم إلى الحديث والمحدثين ، ورميهم بإيهم بحمل الكذب ورواية المتناقض ، وذمهم وإسهابهم ومبالغتهم في انتقاصهم^(١٠) .
ب - عدم وضوح رأى المعتزلة في السنة وإن لم يكن قد اتفق عليه الناقلون . هل يقولون بحجيتها مطلقا كجمهور المسلمين ؟ أم ينكرون حجيتها مطلقا ؟ أم يقولون بحجية المتواتر دون الآحاد؟^(١١) - ^(١٢) .
ولم يقف الأمر عند ذلك ، بل صاحب تلك النزعة اتجه آخر تركز حول الفقه والفقهاء ، كي يفقد الناس ضوابط أحكامهم الشرعية ، ويتحولوا إلى ضلالات شتى !
فكان من دواعي البحث :

١ - إنصاف المحدثين والفقهاء ، والإنصاف لهم ببيان شرفهم ورفعة شأنهم ، بالذب عنهم . وإبطال ما نسب إليهم من تهم ، ورد قول من يقول : إن المحدثين مجرد نقلة للأخبار ، جل همهم الإهتمام بالنقد الخارجي للحديث دون النقد الداخلي ، ولا خبرة لهم بما يحويه المتن ، فقد شغلتهم العنينة^(١٣) عن رحابة الفقه ، فلم يحسنوا تقرير الأحكام ، أو استنباط الأدلة ، حتى شاع في الأذهان أنهم لا يعرفون غير الحديث ، بل استبعد البعض أن يكون للمحدث أي نشاط فقهي !

وهنا لابد من توضيح أمرين :

الأول : الأسباب التي ساعدت على شيوع هذه الأفكار .

الثاني : الآثار المترتبة عليها .

ما الذي ساعد على شيوع هذه الأفكار وترسيخها ؟

الحق أن هذا الأمر لم يكن ليحدث تلقائيا ، بل هو نتيجة لمقدمة وأسباب ترتب عليها .

(١٠) أنظر تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة : ١١ ط دار الكتب العلمية .

(١١) التواتر : التابع من غير انقطاع ، وعند المحدثين ؛ ما رواه جمع عن جمع في كل طبقة من طبقاته بحيث يحيل العقل تواطؤهم على الكذب ، أو صدوره منهم اتفاقا ، واستندوا في ذلك إلى أمر محسوس ... والآحاد ؛ ما لم تجتمع فيه شروط المتواتر ، فيشمل ما رواه واحد في طبقة ، وما رواه اثنان ، وما رواه ثلاثة فأكثر ما لم يصل إلى حد التواتر .
نزهة النظر : ١٩ ، ٢٦ ، دراسات في علوم الحديث : ١ / ١٤ ، ٢٧ .

(١٢) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي ، د . مصطفى السباعي : ١٣٤ ط المكتب الإسلامي .

(١٣) العنينة : ما يقال في سنده فلان ، عن فلان من غير بيان للتحديث ، أو الإخبار . شرح العراقي لألفيته : ١ / ١٦٢ .

وإذا جاز لنا أن نقف من علماء الكلام المروجين لها موقف الحذر والشك فماذا يكون موقفنا من أنصاف المحدثين ؟ ، ولترك واحداً من الأئمة أصحاب الغيرة على الحديث وأهله يعبر عن ذلك فيقول :

« ففري المحدث يكتب ويسمع خمسين سنة ، ويجمع الكتب ولا يدري ما فيها ، ولو وقعت له حادثة في صلاته لاقتصر إلى بعض أحداث المتفقهة الذين يترددون إليه لسماع الحديث منه .

وبهؤلاء تمكن الطاعنون على المحدثين ، فقالوا : زوامل^(١٤) أسفار ، لا يدرون ما معهم ، فإن أفلح أحدهم ونظر في حديثه فربما عمل بحديث منسوخ ، أو ربما فهم من الحديث ما يفهم العامي الجاهل وعمل بذلك ، وليس المراد من الحديث^(١٥) .

وصاحب هذا الكلام - أيده بأدلة ساقها - ثم عقب عليها بقوله : « فانظر إلى هاتين الفضيحتين ؛ فضيحة الجهل ، وفضيحة الإقدام على الفتوى بمثل هذا التخليط^(١٦) .

إن شيوخ الفصل بين الفقيه والمحدث ساعد عليه بعض الرواة ممن لم يكن لهم بصر بالمعاني ، أو قدرة على الاستنباط واستخلاص الأحكام .

هؤلاء : هم الذين عناهم ابن الجوزي^(١٧) .

وقد سبقه غيره من الغيورين على شرف أصحاب الحديث ممن صنفوا في ذلك مصنفات تشهد بالغيرة على الحديث والمحدثين ، وكيف انبري أصحابها في الدفاع عنهم ، وكان منهم ابن قتيبة^(١٨) .

فقد أورد نماذج من تلك الطعون والتي ربما كانت السبب في تصنيفه لـ « تأويل مختلف الحديث » .

ودونك شيئاً مما كتبه :

« قالوا : وهم مع هذا أجهل الناس بما يحملون ، وأبخص الناس حظاً فيما يطلبون وقالوا

(١٤) زوامل : الزاملة ؛ يعبر يستظهر به الرجل يحمل عليه متاعه ، زمل : يدل على حمله ثقلاً من الأثقال ، معجم مقاييس اللغة لابن فارس : ٣ / ٢٥١ .

(١٥) تلبس إبليس : ١١٤ ط دار الكتب العلمية . (١٦) المصدر السابق : ١١٦ .

(١٧) ابن الجوزي : الشيخ الإمام العلامة ، الحافظ المفسر ، شيخ الإسلام جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي ، ينتهي نسبه إلى الصديق ، ولد سنة ٥٠٩ هـ ، أو سنة ٥١٠ هـ ، وتوفي سنة ٥٩٧ هـ ، التكملة لوفيات النقلة : ١ / ٣٩٤ ، وفيات الأعيان : ٣ / ١٤٠ ، سير أعلام النبلاء : ٢٠ / ٣٦٥ ، تذكرة الحفاظ : ٤ / ١٣٤٢ ، ذيل طبقات الحنابلة : ١ / ٣٩٩ ، غاية النهاية في طبقات القراء : ١ / ٣٧٥ .

(١٨) ابن قتيبة : فقيه الأدباء ، وأديب الفقهاء ، محمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة ٢١٣ - ٢٧١ هـ وهو اختار ابن خلكان ، تاريخ بغداد : ١٠ / ١٧٠ ، وفيات الأعيان : ٣ / ٤٢ ، سير أعلام النبلاء : ١٣ / ٢٩٧ ، تذكرة الحفاظ : ٢ / ٦٣٣ ، ميزان الاعتدال : ٢ / ٥٠٣ ، البداية والنهاية : ١١ / ٤٨ ، شذرات الذهب : ٢ / ١٦٩ .

في ذلك :

زوامل للأشعار لا علم عندهم يجيدها إلا كعلم الأباغر
لعمرك ما يدري البعير إذا غدا بأحماله أو راح ما في الغرائر^(١٩)

قد قنعوا من العلم برسمه ، ومن الحديث باسمه ، ورضوا بأن يقولوا : فلان عارف بالطرق ورواية الحديث ، وزهدوا في أن يقال عالم بما كتب ، أو عامل بما علم ، قالوا : وما ظنكم برجل منهم يحمل العلم وتضرب إليه أعناق المطي خمسين سنة أو نحوها سئل في ملأ من الناس عن فارة وقعت في بئر ، فقال : البئر جبار^(٢٠) . وآخر سئل عن قوله تعالى : ﴿ رِيحٌ فِيهَا صِرٌّ ﴾^(٢١) . قال : هو هذا الصرصر ، يعني صراصير الليل ، وآخر حدثهم عن سبعة وسبعين ، يريد شعبة سفين « إلى آخر كلام طويل أورده عن حط على أهل الحديث ، ثم قال : « هذا ما حكيت في طعنهم على أصحاب الحديث ، وشكوت تطاول الأمر بهم على ذلك من غير أن ينضح عنهم ناضح ، ويحتج لهذه الأحاديث محتج ، أو يتأولها متأول ، حتى أنسوا بالعب ، ورضوا بالقذف ، وصاروا بالإمسك عن الجواب كالمسلمين ، وبتلك الأمور معترفين »^(٢٢) .

وإذا كان ابن قتيبة - رحمه الله - لم يسلم لأصحاب هذه الطعون طعونهم في أهل الحديث ، بل دافع عنهم ، وحملهم المسئولية فقال متسائلا في باب « ذكر أصحاب الحديث » من كتابه :

« فهل أصحاب الحديث في سقطهم إلا كصنف من الناس ؟ » .

على أنا لا نخلي أكثرهم من العذل في كتبنا في تركهم الاشتغال بعلم ما قد كتبوا ، والتفقه بما جمعوا ، وتهافتهم على طلب الحديث من عشرة أوجه ، وعشرين وجها ، وقد كان في الوجه الواحد الصحيح والوجهين مقنع لمن أراد الله عز وجل بعلمه حتى تنقضي أعمارهم ولم يخطوا من ذلك إلا بأسفار أتعبت الطالب ولم تنفع الوارث^(٢٣) .

ومثل ابن قتيبة ، في عدم تبرئته لساحة المحدثين ، وأنهم هم الذين أعطوا غيرهم فرصة الطعن عليهم ، وفتحوا لهم بأيديهم باب الهجوم ؛ الخطيب البغدادي^(٢٤) . في كتابه « الفقيه والمتفقه » يقول رحمه الله :

(١٩) البيتان : لروان بن سليمان بن يحيى ، هجا بهما قوما من رواة الشعر ، هامش تأويل مختلف الحديث : ١٧ .
(٢٠) المعنى والله أعلم : أنه توهم أن البئر لا ينجس بوقوع الفأر فيه ، إذ الجبار بالضم : البرئ من الشيء .
(٢١) سورة آل عمران آية رقم : ١١٧ (٢٢) تأويل مختلف الحديث : ١٧ ، ١٨ ، ١٩

(٢٣) المصدر السابق : ٧٦

(٢٤) الإمام العلامة الحافظ الناقد ، أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد ، صاحب التصانيف ٣٩٢ - ٤٦٣ هـ - تبين كذب المفترى ٢٦٨ ، الباب ١ / ٤٥٣ ، وفیات الأعيان ١ / ٩٢ ، سير أعلام النبلاء : ١٨ / ٢٧٠ ، تذكرة الحفاظ : ٣ / ١١٣٥ ، شذرات الذهب : ٣ / ٣١١

« قد يحمل الحديث من يكون له حافظا ، ولا يكون فيه فقيها ، وأكثر كتبة الحديث في هذا الزمان بعيد من حفظه ، خال من معرفة فقهه ، لا يفرقون بين معلل^(٢٥) وصحيح ، ولا يميزون ما بين معدل من الرواة ومجروح ، ولا يسألون عن لفظ أشكل عليهم رسمه ، ولا يبحثون عن معنى خفى عليهم علمه ، مع أنهم قد أذهبوا في كتبه أعمارهم ، وبعدت في الرحلة لسماعه أسفارهم ، فجعلوا لأهل البدع من المتكلمين ولمن غلب عليه الرأي من المتفقهين طريقا إلى الطعن على أهل الآثار ، ومن شغل فيه بسماع الأحاديث والأخبار ، حتى وصفوه بضروب الجهالات ونبذوهم بأسوأ المقالات ، وأطلقوا ألسنتهم بسبهم ، وتظاهروا بعبث المتقدمين وتلبهم ... » .

إلى أن يقول :

وحق لمن كانت حاله هذه أن يطلق فيه القول الفظيع ويشنع عليه بضروب التشنيع^(٢٦) فإذا كان الحال على ما وصف الخطيب ومن قبله ابن قتيبة - فهل يعذر أهل الأهواء والبدع في حطهم على أهل الحديث ؟ ! .

اكتفي هنا ببيان ما ذكرت لأقرر :

١ - هذه الطعون صدرت من أصحاب الأهواء والبدع وكفى . إذ لا قدم لهم راسخة في علوم الحديث ، وربما حمل عليها الحسد ودوافع شخصية من بغض للحديث وأهله .

٢ - إنها صدرت في حق جماعة من المنتسبين إلى أهل الحديث ، ولم تكن في حق المتبحرين فيه إذ لم يثبت في حقهم شيء من هذا .

٣ - ربما وجد من الأسباب والدوافع غير هذا - مما هو من طبائع النفوس التي لا يعلم مداها إلا الله ، ولعل ما ذكرته أهمها .

٤ - إن الفقه إنما يعتمد أساسا وبالدرجة الأولى على النص من الكتاب والسنة مع بصر تام بالمعاني والغايات ، وفقه بلا نص ، خط بلا وضوح ، وشبح بلا روح ، أو هو جهد باطل ومن ثم وجب على الفقهاء التعمق في علم الحديث . كما على المحدثين أن يتقنوا الفقه ويتعمقوا في فهم المعاني .

٥ - الحديث من الفقه بمنزلة الروح من الجسد ، أو الأساس للبناء ، وكل بناء لا يقوم على

(٢٥) يقال : حديث معلل ومعلول وكلاهما غير مستقيم إذ لا يساعد على استعمال المحدثين من حيث اللغة ، والأولى أن يقال « معل » من أعله وعله الحديث في اصطلاح كثير من المحدثين ، أمر خفي غامض قادح في صحته ، مع أن ظاهر أمره السلامة منه ، وذلك كالانقطاع في ظاهر الاتصال ، والوقف في ظاهر الرفع .. وما فيه علة غير قاذحة لا يقال له معل ، فإذا أرسل الثقة حديثا في مكان ثم وصله في آخر لا يقدر ذلك فيه ، وهذا النوع من أجل علوم الحديث وسبيل معرفته ؛ الجمع بين طرق الحديث ، والنظر في اختلاف رواته ، أنظر : التقييد والإيضاح : ١١٥ ، تدريب الراوي : ١ / ٢٥١ ، دراسات في علوم الحديث : ١١٦ / ٢ .

(٢٦) الفقيه والمتفقه : ٢ / ٧١ - ٧٣ ط دار الكتب العلمية .

أساس لا يؤمن عواقبه ، وأساس بلا بناء ما قيمته ؟

٦ - ضرورة بذل الجهود لسد الخلل العلمي بين المشتغلين بالفقه والحديث الحاجة كل منهما الماسة إلى ما عند غيره .

على هذا نقول :

* إنهما معا يكملان إذا اجتماعا ، وينقصان إذا افترقا .

* الفقيه والحديث لا ينفصلان ، ولا يستقل أحدهما عن الآخر ، الحاجة كل منهما إلى صاحبه ، وإن كان الواقع بخلافه حيث يثبت الواقع المشاهد وجود فجوات علمية بين أصحاب الإتجاهين .

وهذا ما قرره الخطابي^(٢٧) ، وتأمل ما نص عليه بعد ذكره للمحدثين والفقهاء « ووجدت هذين الفريقين على ما بينهم من التداني في المحليين والتقارب في المنزلتين ، وعموم الحاجة من بعضهم إلى بعض ، وشمول الفاقة اللازمة لكل منهم إلى صاحبه ، إخوانا متهاجرين ، وعلى سبيل الحق بلزوم التناصر والتعاون غير متظاهرين »^(٢٨) .

الآثار المترتبة على هذه الطعون :

الحق أن لهذه الطعون آثاراً إيجابية طيبة ، على غير المنتظر والمتوقع إذ المعهود أن تقعد بالمحدثين الهمم ، وأن تصرفهم الصوارف ، وتثبط عزائمهم ، شأن الاشاعات المفتراة إذا ما ألصقت بالأبرياء والشرفاء ، فكانت بحق بردا وسلاما وخيرا وبركة على الحديث وأهله . ومن دلائل ذلك :

١ - معرفة طرق الرد على مثل هذه المثالب وإبطالها وتفنيد مزاعم أصحابها ، فقد أبانت ولا شك للعلماء كيفية ذلك والتدريب عليه ، فإذا ما وقعت بعد هذه الانتقادات لم تردهم علما بوقوعها ، فقد ألقوها ومرنوا على الرد عليها .

٢ - ما عاد بسبب ذلك من نفع عميم على أهل الحديث سواء في ذلك ، الناحية العلمية أو النظرية ، فظهرت الكتب المصنفة في هذا الأمر . أمر الدفاع عن السنة والأنتصار لأهل الحديث . وأدى ذلك إلى يقظة المحدثين ووعيمهم ، وتمائزهم ، فسدوا الثغرات التي فتحت عليهم ، فعرف من يجمع المرويات لمجرد الجمع ، ومن يجمعها بخبرة ودراية ووعي ، وبالتالي من يسيء إلى سمعة المحدثين ممن لا يسيء ، ولعل من تمام الفائدة أن نشير إلى بعض تلك الكتب وبواعث تأليفها ...

(٢٧) هو الإمام العلم - المحدث ، حمد بن محمد بن إبراهيم بن خطاب من ولد زيد بن الخطاب ، صاحب التصانيف المفيدة الكثيرة النافعة ، ولد سنة بضع عشرة وثلاث مئة ، وتوفي سنة (٣٨٨ هـ) رحمه الله . معجم البلدان : ١ / ٤١٥ - الباب : ١ / ١٥١ ، وفيات الأعيان : ٢ / ٢١٤ . سير أعلام النبلاء : ١٧ / ٢٣ ، تذكرة الحفاظ : ٣ / ١٠١٨ ، البداية والنهاية : ١١ / ٢٣٦ ، شذرات الذهب : ٣ / ١٢٧

(٢٨) مقدمة معالم السنن : ٦ ط دار المعرفة .

١ - المحدث الفاضل بين الراوي والواعي ، للقاضي الحسن بن عبد الرحمن الرامهرمزي^(٢٩) - والكتاب واضح من عنوانه - فهو دعوة إلى التمايز ، وفضح الدخلاء بلطف وأدب ، وأهمية التخصص والتبحر من جانب أهل الصنعة بالوعي والفهم ، وإن كان القاضي لم يذكر ذلك صراحة أو يتحدث عن بواعث تأليفه ، بيد أن هذا أمر يدرك بالفحوي .

ولعل صرخات ابن قتيبة - قد وصلت إليه - فبدلاً من أن يلوم غيره لام نفسه أولاً ، وقبل أن يطالب الطاعنين والمتحاملين بوقف حملاتهم وجه نصائحه الغالية الحكيمة إلى بني جنسه ، مطالباً إياهم أن يتفمعوا بتلك اللطائف دون أن يستثير أحداً .

ولندع ابن خلاد يحدثنا في مقدمة كتابه فيقول : « اعترضت طائفة ممن يشنأ^(٣٠) الحديث ويغض أهله ، فقالوا بتنقص أصحاب الحديث والازدراء بهم ، وأسرفوا في ذمهم والتقول عليهم ، وقد شرف الله الحديث وفضل أهله وأعلى منزلته ، وحكمه على كل نحلة ، وقدمه على كل علم ... » ثم يوضح أسباب هذا التفضيل واستحقاق الرتبة الرفيعة ... وسر هذا العداء والحقد على المحدثين ، لما يرى من اجتماع الناس عليهم ، والتفاف القلوب حولهم .

فيقول : « ولأنه » أي الحاقد « عول في أكثر ما أودعه كتبه وأكثر الرواية عنه على طبقة لا يعرفون إلا الحديث ، ولا يتتحلون سواه ، وهم عيون رجاله ، ليس فيهم أحد يذكر بالدراية ، ولا يحسنون غير الرواية فألاً تأدب بأدب العلم وخفض جناحه لمن تعلق بشيء منه ولم يهرج^(٣١) شيوخته الذين عنهم أخذ وبهم تصدر ، ووفى الفقهاء حقوقهم من الفضل ولم يخس الرواة حظوظهم من النقل ، ورغب الرواة في التفقه ، والمتفقه في الحديث وقال بفضل الفريقين وحض على سلوك الطريقين فإنهما يكملان إذا اجتماعا وينقصان إذا افترقا »^(٣٢) .

٢ - ومنها كتاب أخلاق العلماء للأجري^(٣٣) .

(٢٩) ضبطه في الباب بفتح الراء والميم ، وضم الهاء والميم الثانية ، نسبة إلى رامهرمز ، إحدى كور الأهواز من بلاد خوزستان : ٢ / ١٠ ، إمام حافظ بارع ، عاش إلى قرب الستين وثلاث مئة ، ويعد كتابه هذا أول ما صنف في علوم الحديث ، وقد حققه الدكتور / محمد عجاج الخطيب ، ونال به درجة الدكتوراه ، وطبعته مؤسسة دار الفكر ، له ترجمة في : سير أعلام النبلاء : ١٦ / ٧٣ تذكرة الحفاظ : ٣ / ٩٠٥ ، طبقات الحفاظ : ٣٧٠ ، شذرات الذهب : ٣ / ٣٠ ، الرسالة المستطرفة : ٤٢ .

(٣٠) يشنأ : يغيض ، انظر مادة شنأ ، ترتيب القاموس المحيط : ٢ / ٧٥٨ .

(٣١) البهجة : العدول بالشيء عن الجادة ، والبهرج الباطل والردى ، وبهرج الشيء ، أخذ به على غير الطريق ، معجم مقاييس اللغة : ١ / ٣٣٣ .

(٣٢) المحدث الفاضل : ص ١٥٩ ، ١٦١ ، ط دار الفكر .

(٣٣) بفتح الألف المدودة ، وضم الجيم وتشديد الراء ، نسبة إلى عمل الآجر وبيعته ، الباب : ١ / ١٨ ، وإليها ينسب الإمام المحدث القدوة ، أبو بكر محمد بن الحسين بن عبد الله البغدادي ، صاحب التواليف ، توفي سنة (٣٦٠ هـ) ، والكتاب طبعته رئاسة إدارات البحوث العلمية - بالسعودية - له ترجمة في : تاريخ بغداد : ٢ / ٢٤٣ ، وفيات الأعيان : ٤ / ٢٩٢ ، سير أعلام النبلاء : ١٦ / ١٣٣ ، البداية والنهاية : ١١ / ٢٧٠ .

وهو كتاب صغير الحجم لا يزيد عن ١٢٤ صفحة من الحجم الصغير ، إلا أنه صادر عن خبرة ودراية وتجربة ، وبصر بالفقه والسنن ، وكما هو ظاهر بعد قراءته أنه :

بيان لعلماء سوء ، ببيان صفاتهم ، ممن فتنهم حسن الثناء وليسوا ثياب الخبز على قلوب الذئاب ، وتحمّلوا بحلل الدنيا لا بحلل العلم والعمل .

وأنا أورد طرفاً من كلامه ، فيقول :

« هذه الأخلاق وما يشبهها تغلب على قلب من لم ينتفع بالعلم ، فيبنا هو مقارن لهذه الأخلاق إذ رغبت نفسه في حب الشرف والمنزلة ، وأحب مجالسة الملوك وأبناء الدنيا فأحب أن يشاركهم فيما هم فيه » (٣٤) .

ولم يتوقف إصدار هذه المؤلفات عند سنة ٣٦٠ هـ ، بل ظهرت جملة من المؤلفات ذات الدلالة الخاصة - للخطيب البغدادي - والتي منها :

١ - شرف أصحاب الحديث (٣٥) .

٢ - الكفاية في علم الرواية (٣٦) .

٣ - الفقيه والمتفقه (٣٧) .

٤ - تقييد العلم (٣٨) .

٥ - الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٣٩) .

ولنبحث عند الخطيب في واحد من هذه الكتب عن سر تأليفه فنراه يقول في « شرف أصحاب الحديث » بعد حمد الله والصلاة والسلام على رسوله : « أما بعد ، وفقكم الله لعمل الخيرات وعصمنا وإياكم من اقتحام البدع والشبهات » .

فقد وقفنا على ما ذكرتم من عيب المبتدعة أهل السنن والآثار ، وطعنهم على من شغل نفسه بسماع الأحاديث وحفظ الأخبار ، وتكذيبهم بصحيح ما نقله إلى الأمة الأئمة

(٣٤) أخلاق العلماء : ص ١٢١ ط رئاسة إدارات البحوث العلمية - بالسعودية .

(٣٥) طبع في أنقرة بتحقيق الدكتور محمد سعيد خطيب أوغلي سنة ١٩٧١

(٣٦) يعرض فيه الشروط الواجب توافرها في عالم الحديث ، وقد طبع في حيدر آباد الدكن عام ١٣٥٧ هـ ، وأعيد طبعه في القاهرة بعناية الأستاذ / عبد الحليم محمد عبد الحليم ، وعبد الرحمن حسن محمود ، مطبعة السعادة : ١٩٧٢

(٣٧) طبع بعناية وتعليق الشيخ / إسماعيل الأنصاري ، عضو دار الإفتاء بالسعودية ، في مطابع القصيم بالرياض سنة ١٣٨٩ هـ ، وقام بنشره دار الكتب العلمية ببيروت ، وفي مقدمته يحيل بالأئمة على أهل الحديث ثم يرسم فيه لصاحب الحديث خاصة ، ولغيره عامة ما ينصحه به أن يتميز عن رضي لنفسه بالجهل .

(٣٨) نشره المعهد الفرنسي بدمشق عام ١٩٤٩ ، بتحقيق الأستاذ / يوسف العشني ونشرته دار إحياء السنة النبوية .

(٣٩) طبع في الكويت في مطبعة الفلاح سنة ١٩٨١ ، وقام الأستاذ / محمد رأفت سعيد بتحقيقه وعنوان الكتاب يغني عن التعليق .

الصادقون ، واستهزأهم بأهل الحق فيما وضعه عليهم الملحدون ، ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمْدُدُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾^(٤٠) ، وليس ذاك عجباً من مبتغى الهوى ، ومن أضلهم الله عن سلوك سبيل الهدى^(٤١) .

ثم جاء بعد الخطيب ، أبو المظفر السمعاني^(٤٢) ، فتعصب لأهل الحديث والسنة والجماعة ، وكان شوكا في أعين المخالفين ، وحجة لأهل السنة .

ومن آثاره الحديثية :

أ - الأمالي^(٤٣) .

ب - الإنصار لأهل الأثر^(٤٤) .

جاء فيه « قد لهج بدم أصحاب الحديث صنفان :

أهل الكلام . وأهل الرأي .

فهم في كل وقت يقصدونهم بالثلب والعب ، وينسبونهم إلى الجهل وقلة العلم ، واتباع السواد على انبياء ، وقالوا : « غثاء وغثر^(٤٥) » ، وزوامل أسفار ، وقالوا أقاصيص وحكايات وأخبار ، وربما قالوا : « كَمَثَلُ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَشْقَاراً »^(٤٦) . وفي الحقيقة ما ثلموا إلا دينهم ، ولا سعوا إلا في هلاك أنفسهم ، وما للأساكفة وصوغ الحلي ، وصناعة البز ؟ .

وما للحدادين وتقليب العطر ، والنظر في الجواهر ؟ .

أما يكفيهم صداً الحديد ونفخ الكير ، وشواظ الذيل والوجه ، وغبرة في الحدة ، وما لأهل الكلام ونقد حملة الأخبار ...^(٤٧) إلى آخره .

ومع اشتغال تلك الكتب لقواعد علوم الحديث ، وإرساء أصوله وآدابه ، ومقاومتها تلك المقاومة الجادة الهادئة الهادفة لكل منتسب إلى العلم من غير أهله .

(٤١) شرف أصحاب الحديث : ٣ ، ٤

(٤٠) سورة البقرة آية رقم : ١٥

(٤٢) بفتح السين وسكون الميم وفتح العين ، نسبة إلى سمعان جد المنتسب إليه ، الباب : ٢ / ١٣٨ ، وهو : الإمام العلامة شيخ الشافعية ، منصور بن محمد بن عبد الجبار ٤٢٦ - ٤٨٩ هـ ، طبقات السبكي : ٤ / ٢٤ ، سير أعلام النبلاء ١٩ / ١١٤ ، البداية والنهاية : ١٢ / ١٥٣ ، طبقات الداودي : ٢ / ٣٣٩ ، شذرات الذهب : ٣ / ٣٩٣ ، الرسالة المستطرفة : ١٠٣

(٤٣) قال حفيده في الأنساب : ٣ / ٢٩٩ ط دار الكتب العلمية بيروت ، ونقله عنه السبكي ٤ / ٢٤ « وأملني المجالس في الحديث وتكلم على كل حديث بكلام مفيد ، وصنف التصانيف في الحديث مثل منهاج السنة ، والانتصار ، والرد على القدرية وغيرها » .

(٤٤) ذكره السبكي : ٤ / ٢٤ ، والذهبي : سير أعلام النبلاء : ١٩ / ١١٧ باسم الانتصار بالأثر .

(٤٥) الغثاء : ارتفاع شيء دنى فوق شيء ، ويقال لسفلة الناس . والغثر : من الأغثر وهو الطحلب : معجم مقاييس

اللغة : ٤ / ٤١٢

(٤٦) اقتباس من الآية رقم ٥ . من سورة الجمعة .

(٤٧) نقلا من كتاب « صون المنطق » للسيوطي : ١٤٧ ، ١٤٨ ط دار الكتب العلمية .

ومع أن الفقهاء أنفسهم قد اهتموا بالأسانيد وعلم الحديث ، فقد حفلت تلك المصنفات بإبراز ما تفرد به علماء السنة من مواهب وسمات خاصة بهم لم يشاركهم فيها غيرهم .
وأنهم على الحق لا يضرهم من خذلهم أو عاندتهم ، فقد أخذوا أمرهم من الكتاب والسنة ، وقرنوا أسماءهم باسم رسول الله ﷺ ، منه استمدوا وعنه نقلوا ، فاتفقوا وأتلفوا .
ذلك أن النقل عن المتقين الأثبات قلما يختلف فيه أحد ، وإن وقع فيه اختلاف فإنه لا يضر إن شاء الله .

جاء عن شيخ الإسلام ابن تيمية^(٤٨) أنه قال :

« من المعلوم أن أهل الحديث يشاركون كل طائفة فيما يتحلون به من صفات الكمال ، ويمتازون عنهم بما ليس عندهم ، فإن المنازع لهم لا بد أن يذكر فيما يخالفهم فيه طريقا أخرى مثل المعقول والقياس والرأي والكلام والنظر والاستدلال والحاجة والمجادلة والمكاشفة والمخاطبة والوجد والدوق ونحو ذلك .

وكل هذه الطرق لأهل الحديث صفوتها وخلاصتها ، فهم أكمل الناس عقلا وأعدلهم قياسا ، وأصوبهم رأيا ، وأسدهم كلاما ، وأصحهم نظرا وأهداهم استدلالا ، وأقومهم جدلا وأتمهم فراسة وأصدقهم إلهاما وأحدهم بصرا ومكاشفة وأصوبهم سمعا ومخاطبة وأعظمهم وأحسنهم وجدا وذوقا .

وهذا هو للمسلمين دون سائر الأمم ، ولأهل السنة والحديث بالنسبة إلى سائر الملل^(٤٩) فهم قد شاركوا غيرهم وزادوا عليهم » .

هم أمة واحدة ، ونسيج واحد ، لا اختلاف بينهم ولا تباغض ، مهما نأت بهم البلاد ، وتباعدت الأقطار ، يجرون على طريقة واحدة لا يحدون ولا يميلون .

حتى قال أبو المظفر : لو جمعت جميع ما جرى على ألسنتهم نقلوه عن سلفهم ، وجدته كأنه جاء من قلب واحد ، وجري على لسان واحد ، وهل على الحق دليل أئين من هذا؟^(٥٠) .

أين من هذا - أهل الأهواء والبدع ومن جعلوا الدين غرضا للخصومات والفتن ؟ إنك لا تكاد تظفر باثنين منهم على طريقة واحدة ، هم أبدا في تنازع وتباغض ، يكفر بعضهم ببعض ، ويلعن بعضهم بعضا .

(٤٨) هو الإمام البارع الناقد الفقيه المجتهد ، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله ، الحراني ٦٦١ - ٧٢٨ هـ ، البداية والنهاية : ١٤ / ١٦٣ ، تذكرة الحفاظ : ٤ / ١٤٩٦ ، ذيل طبقات الحنابلة : ٢ / ٣٨٧ ، شذرات الذهب : ٦ / ٨٠ ، طبقات الداودي : ١ / ٤٥ ، طبقات الحفاظ للسيوطي : ٥٢٠ ، الدرر الكامنة : ١ / ٤٤ ط الجبل ، البدر الطالع : ١ / ٦٣ ط دار المعرفة .

(٤٩) نقض المنطق : ٧ ، ٨ ط مكتبة السنة المحمدية .

(٥٠) صون المنطق : ١٦٧ نقلا عن أبي المظفر السمعاني في كتابه الانتصار .

أو ما سمعت أن المعتزلة مع اجتماعهم في هذا اللقب يكفر البغداديون منهم البصريين ، والبصريون منهم البغداديين ، ويكفر أصحاب أبي علي الجبائي^(٥١) ابنه أبا هاشم^(٥٢) ، وأصحاب أبي هاشم يكفرون أباه أبا علي ، وكذلك سائر رؤوسهم وأرباب المقالات منهم^(٥٣) ؟

فتأمل هذا وتدبر كيف أن الله صان أهل الحديث مما وقع فيه غيرهم ، وبهذا يظهر فضلهم وشرفهم ، وما هم عليه من حق لا يختلفون فيه ، لذا نرى غيرهم يفر إليهم ، ولا يفرون هم إليه ، بل يوصي غيرهم خاصته بما عليه أهل الأثر لأنه الحق .

ولم لا يرجع الناس إليهم وهم الممكن لهم ، بقبول الأخبار منهم ؟ وحسبك أن إمام الحرمين وهو من هو؟^(٥٤) .

يقول : « لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما اشتغلت بالكلام »^(٥٥) .

وقوله : « يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام فلو عرفت أنه يبلغ بي ما بلغ ما اشتغلت به »^(٥٦) .

« اشهدوا على أبي قد رجعت عن كل مقالة تخالف السنة »^(٥٧) .

وأخرج الخطيب إلى أحمد بن سنان^(٥٨) .

قال : « كان الوليد الكرايسي^(٥٩) خالي ، فلما حضرته الوفاة قال لبنيه : تعلمون أحدا أعلم بالكلام مني ؟.. قالوا : لا . قال : فتهموني ..؟ قالوا : لا قال : فإني أوصيكم .

(٥١) أبو علي الجبائي : بضم الجيم وتشديد الياء ، قرية من قرى البصرة . ينسب إليها محمد بن عبد الوهاب صاحب مقالات المعتزلة ٢٣٥ - ٣٠٣ هـ الباب ١ / ٢٥٥

(٥٢) أبو هاشم : عبد السلام بن محمد بن عبد الوهاب ، شيخ المعتزلة ، وابن شيخهم ولد سنة ٢٧٧ - ٣٢١ هـ ، تاريخ بغداد : ١١ / ٥٥ شذرات الذهب : ٢ / ٢٨٩

(٥٣) صون المنطق للسيوطي ١٦٧ نقلا عن أبي المظفر في كتابه الانتصار ، وانظر : الاستقامة لابن تيمية : ٤٩ وما بعدها ، ترى كثيراً من هجوم علماء الكلام على الفقه والفقهاء .

(٥٤) إمام الحرمين : عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن عبد الله بن يوسف ٤١٩ - ٤٧٨ هـ ، له ترجمة في : تبين كذب المفتري : ٢٧٨ ، معجم البلدان لياقوت : ٢ / ١٩٣ ، وفيات الأعيان : ٣ / ١٦٧ ، سير أعلام النبلاء : ١٨ / ٤٦٨ ، طبقات السبكي : ٣ / ٢٦١

(٥٥) صون المنطق : ١٨٣ نقلاً عن أبي المظفر السمعاني .

(٥٦) طبقات السبكي : ٣ / ٢٦٠ ، والذهبي في سير أعلام النبلاء : ١٨ / ٤٧٤ ، ولم يرتض السبكي هذا الكلام ، وقال : « إنا نشبه أن تكون هذه الحكاية مكذوبة » .

(٥٧) سير أعلام النبلاء : ١٨ / ٤٧٤

(٥٨) أحمد بن سنان بن أسد بن حبان القطان ، ولد بعد السبعين ومئة ، وتوفي (سنة ٢٥٦ هـ) ، كان إماماً بارعاً ، صنف المسند ، وكان يقول : « ليس في الدنيا مبتدع إلا ويبغض أصحاب الحديث ، وإذا ابتدع الرجل بدعة نزعته حلاوة الحديث من قلبه » له ترجمة في : الجرح والتعديل : ٢ / ٥٣ ، تذكرة الحفاظ : ٢ / ٥٢١ ، سير أعلام النبلاء : ٢ / ٢٤٤ تهذيب التهذيب : ١ / ٣٤

(٥٩) هو الوليد بن أبان الكرايسي ، بفتح أوله والراء ، نسبة إلى بيع الثياب ، الباب : ٣ / ٨٨ ، أحد أئمة الكلام ، تاريخ بغداد : ١٣ / ٤٤١ ، سير أعلام النبلاء : ١٠ / ٥٤٨

أقبلون ..؟ قالوا : نعم . قال : عليكم بما عليه أصحاب الحديث فإني رأيت الحق معهم^(٦٠) .
وكما كان لهذه الطعون من آثار إيجابية عادت بالخير والبركة على الحديث وأهله - كان
لها أيضًا آثاراً طيبة على الفقه وأهله ، ومن مظاهر ذلك :
- ما قام به جمع من كبار المحدثين بتأليف كتب خاصة في تخريج الأحاديث التي
يستشهد بها الفقهاء ، ومن هؤلاء :

ابن الجوزي في كتاب « التحقيق في تخريج التعاليق » .
- الزيلعي جمال الدين^(٦١) في كتاب « نصب الرأية لأحاديث الهداية » والكتاب أشهر ما
صنف في هذا الفن وقد قام مؤلفه بتخريج الأحاديث التي استشهد بها العلامة على بن أبي
بكر الرغيناني ت ٥٩٣ هـ في كتاب الهداية في الفقه الحنفي .
- ابن حجر العسقلاني^(٦٢) ت ٨٥٢ هـ في كتابه « الدراية في تخريج أحاديث الهداية »
قام فيه بتلخيص « نصب الرأية » .

ومن مؤلفات الحافظ ابن حجر في هذا الشأن أيضًا « التلخيص الحبير في تخريج أحاديث
شرح الوجيز الكبير » لخص فيه كتاب « البدر المنير في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في
الشرح الكبير » لابن الملقن ت ٨٠٤ هـ وكتاب « الشرح الكبير » للرافعي ت ٦٢٣ هـ الذي
شرح فيه الوجيز للغزالي .

٢ - ومن الدواعي : خطورة الانتصار للرأي الواحد ، والانغلاق على الفكرة الواحدة
ورفض ما عداها ، ولا سيما إذا ما صاحب ذلك نوع تعصب أو زعم أنها الحق ، وما سواها
غير ذلك .

وطالما أن في الأمر سعة فلماذا التضيق ؟
إن الآثار المترتبة على الانغلاق على الفكرة الواحدة كثيرة ، وسلباتها خطيرة .

يكفي أن يكون منها :

تفويت الخير على الناس ، عتتا وإحراجا ومشقة . وأين من هذا احترام الرأي ، والرأي
الآخر ؟ . أين منه التماس الأعذار ، وأن نتعاون في المتفق عليه ؟ . والله إنما أثاب المجتهد على
اجتهاده ، وحط عنه الإثم ، وقد نقل عن الصحابة من اختلافهم في الأحكام واستمرارهم
على الاختلاف مع عدم صدور نكير أو تأنيب على أحد لا تصرّحاً ولا تلميحاً ، لا على سبيل
الإبهام ولا التعيين .

(٦٠) الخطيب في شرف أصحاب الحديث : ٥٦ ، تاريخ بغداد : ١٣ / ٤٤١ ، والذهبي في سير أعلام النبلاء : ١٠ / ٥٤٨

(٦١) جمال الدين عبد الله بن يوسف الزيلعي (ت ٧٦٢هـ) فقه أهل العراق ٧٢

(٦٢) أحمد بن حجر بن حجر بن علي العسقلاني ٧٧٣ - ٨٥٢ هـ ذيل تذكرة الحفاظ : ٣٨٠ ، طبقات الحفاظ : ٥٥٢ ،
شذرات الذهب : ٧ / ٢٧٠

في حين أنهم حاربوا مانعي الزكاة .

فلو كانت المسائل الاجتهادية نازلة منزلة هذه المسائل - العبادات - وتحريم الزنا والقتل - في كونها قطعية ومأثوما على المخالفة فيها لبالغوا في الإنكار والتأنيب حسب مبالغتهم في الإنكار على من خالف في وجوب العبادات الخمس وفي تأنيبه لاستحالة تواطئهم على الخطأ^(٦٣) .

وقال سفيان الثوري^(٦٤) : « ما اختلف فيه الفقهاء فلا أنهي أحداً من إخواني أن يأخذوا به » .

وقوله : « إذا رأيت الرجل يعمل العمل قد اختلف فيه وأنت ترى غيره فلا تنهه عنه »^(٦٥) .

ما أجمل أن تسود هذه النظرة التي تقبل من الناس أحسن ما عملوا وتتجاوز عن سيئاتهم ونقصهم ، وما لا يعجبك قد يعجب غيرك ، ولقد أسرف البعض في الابتعاد عنها ، فكانت نظرهم للمسائل الخلافية بعين واحدة ، أو من جهة واحدة ، فجاءت عليلة .

فهل يزعم أحد أن الصواب حكر عليه ؟ وهل يقبل هذا الزعم ؟
إننا ننكر هذا ، وننكر الخلفية المتوترة لمثل هذا الزعم الذي يشبه الفتن .
ما الذي يترتب على هذا ؟ .

يترتب عليه أمر يجب توضيحه هو :

أن الأخذ بقول من الأقوال المختلف فيها لا يرد الآخر ، ولا يوجب تبديعاً أو تفسيقاً . وأن ترجيح بعضها على بعض ليس هجراً لنص أو أثر ، كما أن اعتماد مذهب دون الآخر لا يوجب مدحاً أو قدحاً .

ذلك أن هذا ليس من مظاهر الخروج على النص من الكتاب أو السنة ، مما هو من باب رد الأمر الواحد من أوامر النبي ﷺ ، الموجب للفتنة أو العذاب الأليم .

قال الله تعالى : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾^(٦٦) . فلا يرد أمر من أوامر الرسول ﷺ فذلك زيغ وفتنة .

جعل الإمام أحمد^(٦٧) رضي الله عنه ، يردد هذه الآية ويقول : وما الفتنة ؟ الشرك . لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيزيغ قلبه فيهلكه^(٦٨) . وكما لا يرد الشيء

(٦٣) الإحكام في أصول الأحكام للآمدي : ٢٤٥ / ٤ ط دار الكتب العلمية .

(٦٤) هو : سفيان بن سعيد بن مسروق ، الثوري - بفتح الثاء نسبة إلى ثور تميم - الباب ١ / ٢٤٤ ، أحد الأعلام (٩٧ -

١٦١ هـ) ، طبقات ابن سعد : ٣٧١ / ٦ تاريخ بغداد : ١٥١ / ٩ ، تهذيب التهذيب : ١١١ / ٤

(٦٥) الفقيه والمتفقه للخطيب : ٦٩ / ٢ (٦٦) سورة النور آية رقم : ٦٣

(٦٧) هو الإمام العلم : أحمد بن محمد بن حنبل ١٦٤ - ٢٤١ هـ طبقات ابن سعد : ٣٥٤ / ٧ ، تاريخ بغداد : ٤ /

٤١٢ ، طبقات الخنابلة : ٤ / ١ ، سير أعلام النبلاء : ١٧٧ / ١١

(٦٨) الصارم المسلول على شاتم الرسول ، لابن تيمية : ٥٦ ط دار الكتب العلمية تحقيق محمد محي الدين .

الواحد من كلام الله تعالى أو كلام رسوله ﷺ ، فكذلك لا يحمل الناس حملاً على أخذ أو ترك لأمر مختلف فيه .

فها هنا أمران :

الأول : عدم حمل الناس على الأخذ بقول مختلف فيه . فغايتة اجتهدا بشر لا إجماع عليه وما كان كذلك فلا يؤمر أحد بالأخذ به ولا ينهي عنه .

الثاني : الحذر من أن يجبرنا ذلك إلى رد أوامر الله ، وأوامر رسوله ﷺ . فنندفع حين الانتصار للأمر الأول إلى رد الثاني .

إن حالات الترغيب أو التهيب . وحالات استشارة العاطفة من شدة فرح أو غضب وغير ذلك لها مدخل كبير في التأثير على المرء والتحكم في قراره قريباً أو بعداً من الصواب .

من هنا يجب ألا تكون إصدارات المرء ردوداً فعلية لمواقف معينة . ولذلك رفض الإمام مالك^(٦٩) أن يكون كتابه « الموطأ » قانوناً قضائياً للدولة العباسية . وقال : « إن أصحاب رسول الله ﷺ ، اختلفوا في الفروع ، وتفرقوا في البلدان وكل مصيب^(٧٠) وفي الحلية « وكل عند نفسه مصيب^(٧١) وفي هذا دليل على فقه الرجل ، وسعة علمه ، وقوة بصره ، ونفاذ بصيرته ، وهو أمر غير مستبعد على مثله كيف . وقد قال : « إن الناس قد جمعوا واطلعوا على أشياء لم نطلع عليها »^(٧٢) ؟

وقال « ليس أحد بعد النبي ﷺ ، إلا يؤخذ من قوله ويترك إلا النبي ﷺ »^(٧٣) .

ولقد روي عن الشافعي^(٧٤) في هذا ما هو أعظم وأطيب ، من ذلك قوله : « كل ما قلت ، وكان عن رسول الله ﷺ ، خلاف قولي مما يصح ، فحديث النبي ﷺ ، أولى ولا تقلدوني » « كل حديث عن النبي ﷺ ، فهو قولي وإن لم تسمعه مني ، إن أصبتم الحجة في الطريق مطروحة فاحكوها عني ، فإني قائل بها »^(٧٥) .

(٦٩) إمام دار الهجرة ، مالك بن أنس بن أبي عامر بن عمرو ٩٣ - ١٧٩ هـ طبقات الشيرازي : ٦٧ ، سير أعلام النبلاء : ٨ / ٤٨ ، تذكرة الحفاظ : ١ / ٢٠٧ ، تهذيب التهذيب : ١٠ / ٥

(٧٠) القصة أوردها ابن كثير في اختصار علوم الحديث : ١٢ ، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله : ٢ / ٨٩ ، والذهبي في سير أعلام النبلاء : ٨ / ٧٨

(٧١) حلية الأولياء لأبي نعيم : ٦ / ٣٣٢ ط دار الكتاب العربي ، سير أعلام النبلاء : ٨ / ٩٨

(٧٢) اختصار علوم الحديث : ١٢ ، وعند الذهبي « فإن الناس قد سيقت إليهم أقاويل وسمعوا أحاديث ورووا روايات وأخذ كل قوم بما سيق إليهم وعملوا به ودانوا به من اختلاف أصحاب رسول الله ﷺ ، وغيرهم ، وإن ردهم عما اعتقدوه شديد فزع الناس وما هم عليه وما اختار أهل كل بلد لأنفسهم » سير أعلام النبلاء : ٨ / ٧٨

(٧٣) جامع بيان العلم وفضله : ٢ / ٩١ ، وهذه العبارة تنسب أيضاً لغير الإمام مالك .

(٧٤) الشافعي : محمد بن إدريس بن العباس بن شافع ١٥٠ - ٢٠٤ هـ طبقات الشيرازي ٧١ ، تاريخ بغداد : ٢ / ٥٦ ، سير أعلام النبلاء : ١٠ / ٥ ، تذكرة الحفاظ : ١ / ٣٦١ ، تهذيب التهذيب : ٩ / ٣٥

(٧٥) آداب الشافعي للرازي : ٩٢ ، ٩٤ ط دار الكتب العلمية .

ونقل ابن الجوزي في مناقب أحمد قال : « من رد حديث النبي ﷺ فهو على شفا هلكه » (٧٦) .

فهل بعد هذه الأقوال من وضوح أو بيان ؟ وكلها دلائل مؤكدة على أن من تمسك بالحق فهو متبع غير مبتدع ، ولا ينافي هذا تقديم بعض الأدلة أو ترجيح بعضها على بعض طالما خرج التقديم والترجيح عن دائرة التبني والتعصب ، ... وتأثير الآخرين ، ومن أخذوا بما لم نأخذ به . ولهذا جاء عن ابن تيمية قوله : « من قال إن الثنتين وسبعين فرقة كل واحد منها يكفر كفرا ينقل عن الملة ، فهو قد خالف الكتاب والسنة وإجماع الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين » (٧٧) .

وهذا كلام ظاهر الدلالة في عدم تكفير الفرق ، فكيف بمن أخذ بقول دون قول مع التسليم بصحة الكل ؟ ..

وعند البخاري (٧٨) باب المعاصي من أمر الجاهلية ، ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك ، لقول النبي ﷺ ، إنك امرؤ فيك جاهلية (٧٩) ، وقول الله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ (٨٠) .

فهذا قول صدر من النبي ﷺ ، في حق رجل غير رجلا بأمره ، وهما من خيار الصحابة ، ومع كونه فيه جاهلية فليس خارجا عن الملة .

قال ابن حجر : « إن كل معصية تؤخذ من ترك واجب أو فعل محرم فهي من أخلاق الجاهلية ، والشرك أكبر المعاصي ولهذا استثناه » (٨١) فما سوى الشرك وإن أطلق عليه أنه كفر أو معصية « كفر النعمة لا كفر الجحود » لا يخرج عن الملة ، وصاحبه ضمن دائرة الغفران .
ومن الأسباب :

٣- أن نعلم أن تشخيص الداء نصف العلاج . ونحن إذا ما حللنا عوامل اختلاف المحدثين والفقهاء - ظهر لنا :

أ - أن الاختلاف حقيقة واقعة من عهد النبوة ، ومن ثم لا يمكن تجاهل أسبابه ، أو

(٧٦) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي : ١٨٢ ط دار الآفاق الجديدة .

(٧٧) مجموع الفتاوى لابن تيمية : ٢١٨ / ٧

(٧٨) أبو عبد الله : محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة ١٩٤ - ٢٥٦ هـ ترجمته في : تاريخ بغداد : ٤ / ٢ ، الباب : ١ / ١٢٥ ، وفيات الأعيان : ٤ / ١٨٨ ، سير أعلام النبلاء : ١٢ / ٣٩١ ، تذكرة الحفاظ : ٢ / ٥٥٥ ، تهذيب التهذيب : ٩ / ٤٧

(٧٩) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الإيمان ، باب : المعاصي من أمر الجاهلية : ١ / ١٤ ، من طريق شعبة عن واصل الأحمد ، عن المرور ، عن أبي ذر ، وفي كتاب الأدب ، باب : ما ينهي من السيئات واللعن : ٨ / ١٩ من طريق عمر بن حفص ، عن الأعمش ، عن المرور ، عن أبي ذر . وأخرجه مسلم ، كتاب الإيمان : باب : إطعام المملوك مما يأكل : ٣ / ١٢٨٢ ، وأبو داود ، في كتاب الأدب ، باب : حق المملوك : ٣ / ٢٤٠ . وأحمد : ٥ / ١٦١ (٨٠) سورة النساء آية رقم : ١١٦ (٨١) فتح الباري : ١ / ٨٥ ، ط دار المعرفة .

إهمالها ، أو القضاء عليها .

ب - إن المختلف فيه يقل كثيرا عن المتفق عليه .

ج - إن الاختلاف إنما وقع في الفروع لا الأصول ، وإن جملة مما وقع فيه الاختلاف عند المتأخرين خاصة نتج عن رغبة وهوى ، وكان يمكن ألا يكون ، لولا قدر الله تعالى وحكمته . قال الله تعالى : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مِنْ رَحْمَةِ رَبِّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ (٨٢) . لهذا يجب ألا نهرب أو نياس أو نتشائم منه ، طالما أنه سنة ماضية باقية ما بقيت الشريعة . هذا :

ولنني أرجو بعلمي هذا أن أساهم في علاج جذور تلك الأزمة الفكرية التي كادت أن تقضي على الأمة بعد أن كاد يغيب عنها استحالة الاتفاق والاجتماع على شيء .

أرجو أن يتبصر المسلم بمناهج أئمة الحديث والفقه ، والعلماء عامة ، وبالأصول التي بنوا عليها اجتهادهم ، وأدى إليها بصرهم في أخذهم وتركهم .

أرجو أن تتضح بعض الحقائق التي يحتاج إليها المسلم بعد تعرفه على طبيعة الاختلاف واستبانة الصحيح ، ألا يبقى لديه نوع تردد أو تشكك في التنفيذ والتطبيق .

وأن نتغلب جميعا على تلك المشكلة التي برزت وما كانت لتخطر لعلمائنا قديما على بال .

مشكلة مسخ النصوص الحديثة وتعطيلها

إن العلماء - اهتموا بالنقد الداخلي والخارجي - اهتماما فاق كل تصور ، لكن ما لم يكن في حساباتهم هو إبطال مفعول النص ، تقييده وعدم العمل به النص صحيح من ناحيته الداخلية والخارجية ، متنه وسنده - مع هذا - تغلبنا نزعة القضاء عليه ، وإعدامه . من هنا يختل تماما الترابط العضوي والموضوعي ، الفكري والسلوكي ، وبالتالي يتكون لدينا كم هائل من الأحاديث المهدرة ، والمعطلة . ركاه هائل من النصوص بعيدة عن الإستعمال ، وعندما يصبح أمر النصوص هكذا ، تختل العلاقة بين النص والواقع ، بين الفكرة والتطبيق ، فنفقد أعز ما لدينا من تراث نبوي كريم .

لذا لزم مع العناية بالنقد ، استعمال النص ما لم يكن ثمة مانع من التطبيق .

مصاعب ولا صمت لها ...

قضية الخلاف والاختلاف إنما وقعت بين علماء بلغوا الدرجة العالية في الفهم والذكاء . فهم بحق جبال علم .

(٨٢) سورة هود آية رقم : ١١٨ ، ١١٩

والموضوع لا يتصل بجانب من جوانب النظر دون آخر ، فله صلته بالفقه وأصوله ، والحديث وعلومه ، واللغة وآدابها ... مما يترتب عليه صعوبة الفصل بين المتنازعين من ناحية ، وقبول نص أورده من ناحية أخرى . وما يترتب على ذلك من إعمال نص أو إهماله ، ووضوح الاستنباطات وتقديم بعضها على بعض ، إلى غير ذلك من قضايا للخلاف فيها مدخل كبير ، والتي ربما أدى طول النظر فيها إلى تحصيل حاصل ، أو غلو وتعت من الموسوسين وذوي العقول المريضة ممن يلهيهم أمر الطهارة والنية عن تفويت وقت الصلاة .

الموضوع إذاً ليس من السهولة بمكان ، لتعدد جوانبه ، والمتعرض له بنحو مما قال عمر بن عبد العزيز^(٨٣) : « إنني أعالج أمراً لا يعين عليه إلا الله ، قد فني عليه الكبير ، وكبر عليه الصغير ، وفصح عليه الأعجمي ، وهاجر عليه الأعراي ، حتى حسبوه ديناً لا يرون الحق غيره »^(٨٤) ، وهذا كلام يفرض على مثلي الإحجام . غير أنه لا حيلة في تركه ولا مفر منه ، ولا سبيل إلى العدول عنه .

كل يداوي سقيماً من مصائبه فمن لي بصحيح ما به سقم^(٨٥)

خطة البحث ومنهجه :

يمكن القول بأن هذا البحث ليس انتصاراً لمذهب على آخر قدر ما هو توضيح لأثر الحديث النبوي في اختلاف المحدثين من حيث ثبوت الحديث ورده ، والفقهاء من حيث الإحتجاج به وعدمه .

بعد هذا استطيع تحديد خطوات العمل في هذا البحث على النحو التالي :

(١) نظراً لتعدد جوانب الموضوع وتشعبها فقد تنوعت مصادره ولذا فقد لزم الأمر تجميع مادته العلمية من مظانها سواء في ذلك النصوص والآراء اللازمة له ، مما حتم عليّ العمل في أكثر من مجال .

(٢) وإتماماً للفائدة فقد قسمت البحث رغم ترابط عناصره وتكامل أجزائه ، فجاء مشتملاً

على :

- مقدمة ، وثلاثة أبواب ، وخاتمة .

(٨٣) أمير المؤمنين : عمر بن عبد العزيز بن مروان توفي سنة ١٠١ هـ ، الجرح والتعديل : ١٢٢ / ٣ ، طبقات الشيرازي : ٦٤ ، طبقات ابن سعد : ٣٣٠ / ٥ ، سير أعلام النبلاء ١١٤ / ٥ ، تذكرة الحفاظ : ١ / ١١٨ ، البداية والنهاية : ١٩٢ / ٩ ، تهذيب التهذيب : ٤٧٥ / ٧ ، شذرات الذهب : ١ / ١١٩ ، غاية النهاية في طبقات القراء : ١ / ٥٩٣

(٨٤) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم : ٣٧

(٨٥) إيثار الحق على الخلق : ٣٣ ط الدار البينية .

اشتملت المقدمة على :

* تمهيد .

* بيان أسباب اختيار الموضوع .

* منهج البحث وخطته .

الباب الأول : في حقيقة الخلاف والاختلاف .

وفيه فصول :

الأول : في حقيقة الخلاف والاختلاف وصلة كل منهما بالآخر .

الثاني : في أسباب الخلاف والاختلاف بين البشر .

الثالث : في الخلاف والاختلاف في ميزان الإسلام .

الرابع : في أدب الخلاف والاختلاف في الإسلام .

الباب الثاني : في أسباب اختلاف المحدثين في الحكم على الحديث .

وفيه تمهيد وأربعة فصول .

التمهيد في نشأة الاختلاف بين المحدثين ، وطبيعة اختلافهم .

أما الفصل الأول : ففي بيان اختلافات المحدثين المتصلة بالسند ، (النقد الخارجي)

الاتصال ، الانقطاع ، صيغ الأداء .

الفصل الثاني : في أسباب اختلافات المحدثين المتصلة بالمتن ، (النقد الداخلي) تحرير

ألفاظ الرواية بالمعنى ، زيادة الثقة .

الفصل الثالث : في أسباب اختلافات المحدثين المتصلة بالحدث نفسه . العدالة ،

والضبط .

الفصل الرابع : في أسباب اختلافات المحدثين المتصلة بالظروف المحيطة بالحديث ،

الشواهد ، المتابعات .

الباب الثالث : في اختلافات الفقهاء ، في الحكم على الحديث .

وفيه : تمهيد ، وأربعة فصول .

أما التمهيد فقد تضمن :

أ - الربط بين الباب الثالث والثاني .

ب - طبيعة الخلاف والاختلاف عند الفقهاء ، ولماذا اختلف حكم المحدثين والفقهاء على

الحديث ؟

أما الفصل الأول : ففي أسباب اختلافات الفقهاء في الحكم على الحديث . وفيه تعريف

بالفقه ، والفقيه ، وأخلاقه . أسباب اختلافات الفقهاء المتصلة بالفقيه .

الفصل الثاني : في اختلافات الفقهاء المتصلة برواية الحديث ، أسباب الاختلاف العارض من جهة الرواية ، عدم صحة الإسناد ، انقطاعه .

الفصل الثالث : في اختلافات الفقهاء المتصلة بالمروى « المتن » خفاء الدلالة ، خلو الحديث منها ، تساوي الدلالات ، وتعادلهما ، معارضة الحديث بعض القواعد الأصولية .

الفصل الرابع : في موقف المسلم من الاختلافات الفقهية ، هل المسلم ملزم باتباع إمام من الأئمة ؟ دور الأئمة في بناء مذاهبهم ، الأصول التي اعتمدوا عليها ، التقليد ومواقف العلماء منه ، والفرق بينه وبين الاتباع .

الخاتمة : في ثمرة الموضوع - علاقة اختلاف المحدثين والفقهاء - نتائج الدراسة والبحث .

(٣) حاولت الجمع بين طريقة المحققين فخرجت النصوص من مصادرها الأصلية ، وعرفت بالأعلام ، وطريقة المؤلفين من جمع بين متفرق أو شرح لمختصر أو اختصار لمطول ، وهكذا .

(٤) إن كل جهد في هذه الرسالة إنما هو ثمرة الوقوف على أكتاف العلماء ونتاج المربين الذين ربونا صغارًا وحملونا كبارًا ، والمنة لله وحده وهو ولي الجزاء . وشكر الله للعلماء بذلهم .

(٥) عالجت الفكرة بالفكرة ، ووضحت قول الإمام بقول إمام آخر ، ولم تتجاوز مهمتي ذلك أحيانًا .

ولذا فقد كان من الممكن أن تخرج هذه الدراسة بصورة أشمل وأفضل وأوضح ، ربما لو كانت بيد غيري ممن وهبوا حسن الفهم وجودة العبارة ودقة الإسلوب ، أو ممن توفرت لهم من الأسباب والإمكانات ما يتيح لهم ذلك .

وأسأل الله أن يجبر قصوري .

(٦) رقت الآيات القرآنية ووضعتها بين قوسين مع الضبط والإشارة إلى السورة .

(٧) عزوت الأحاديث إلى مصادرها من كتب السنة .

(٨) عرفت بالأعلام مع الإشارة إلى مصادر ذلك .

(٩) وضحت الكلمات الغريبة .

(١٠) عملت فهارس عنيت بالنصوص ، والأعلام ، وأبواب البحث . والمراجع .

والله من وراء القصد وهو سبحانه حسبي ونعم الوكيل .

الباحث

* * *